

# تعالق الدين والدنيا في التجربة السياسية المغربية أحمد الهيبة ماء العينين نموذجًا

د. عبد السلام بوطافني

حاصل على دكتوراه في التاريخ المعاصر  
خريج شعبة التاريخ – كلية الآداب والعلوم الإنسانية  
فاس – المملكة المغربية



## ملخص

نمارس التجربة السياسية التي خاضها رجل الدين أحمد الهيبة ماء العينين إغواء فاتنا على كل دارس مفتون بحدود العلاقة بين الديني/الروحي والعمل السياسي في بناء الدولة المغربية، وهي المعادلة التي تظل حاضرة في كل التجارب السياسية المغربية، منذ قيام دولة الأدارسة. وفي هذه التجربة موضوع الدراسة، حيث امتزجت هذه الثنائية البديعة، بانصهار الروحي الشفاف، والمادي الصلد، لحركة صوفية طمحت لتأسيس دولة، واتخذ قائدها الروحي جميع شارات السلطنة. ولكي نلم ببعض تفاصيل هذه التجربة، ارتأينا أن نضع عنها هذه الدراسة، للاقتراب من تجربة حاولت أن تتجاوز معضلة ارتباط وامتزاج الديني بالسياسي، وإيجاد حل لهذه المعادلة العويصة عبر فك الارتباط فيما بينهما. وهي تجربة كاد أن يكتب لها النجاح في الإتيان بسلسلة جديدة لحكم المغرب، لولا حزم الجنرال ليوطي في التعامل معها حفاظًا على السلالة الشرعية، ليقينه أن التاريخ المغربي يتجدد بشكل دوري انطلاقًا من الجنوب. والواقع أننا ما كنا لنفكر في وضع هذه الدراسة إلا بسبب انشغالنا بدور الماضي في صياغة وبلورة الحاضر، وفي تحوله أحيانًا إلى إيديولوجيا معها يتحول التاريخ إلى صراع حول المعتقد "السنة والشيعية" أو الجغرافيا "هناك نماذج كثيرة: الصين وتايوان وتركستان الشرقية...". لتبرير أي الخصمين أحق أن يصدق في دعواه. إذن فهذه التجربة التاريخية، تستمد راهنتها، من زاوية رؤياي كباحث مغربي، من إمكانية المحاجة بسلوك قائدها السياسي في الدفاع على مغربية الصحراء الغربية المتنازع عليها الآن بين المغرب وجبهة البوليساريو الانفصالية المدعومة من طرف الجزائر، فهذه المنطقة لم يتحقق وجودها التاريخي إلا في إطار دولة المغرب من المرابطين إلى العلويين. والرجل بدهة كان يعتبر نفسه مغربيا حين انطلق من الصحراء المغربية/ الغربية إلى مراكش حيث واجه الجيش الفرنسي بقيادة مانجان في معركة سيدي بوعثمان "7- شتنبر 1912"، ولم ينطلق شرقًا نحو الأرض التي اتزعتها الاستعمار الفرنسي من الخلافة العثمانية منذ سنة 1830. ثم ماذا لو دفعنا بفرضية نجاح هذه التجربة الدينية السياسية، ولم يتصد لها المستعمر، أكان المغرب سيبعاني من تجربة مريرة منذرة بتفريجه، وتمزيق أطرافه شر تمزيق؟ رغم أنه في التاريخ لا مجال للفضيات. ويبقى السؤال الجوهرى الذي تثيره هذه الدراسة وتسعى للإجابة عنه، بعيدًا عن دور المستعمر، يتمثل في البحث عن الأسباب والعوامل الكامنة في طبيعة التجربة، والمرتبطة ببنيتها، والتي قادتها على طريق الفشل والتكوص.

## كلمات مفتاحية:

السلطة؛ الزاوية؛ المؤسسة الدينية؛ الدولة؛ تاريخ المغرب الحديث

## بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠٢ أغسطس ٢٠٢٢  
تاريخ قبول النشر: ٣٠ سبتمبر ٢٠٢٢



10.21608/KAN.2022.312296

معرف الوثيقة الرقمي:

## الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عبد السلام بوطافني، "تعالق الدين والدنيا في التجربة السياسية المغربية: أحمد الهيبة ماء العينين نموذجًا". - دورية كان التاريخية. - السنة الخامسة عشر - العدد الثامن والخمسون، ديسمبر ٢٠٢٢، ص ١٧٥ - ١٨١.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: [abdeslamb5@gmail.com](mailto:abdeslamb5@gmail.com)

Editor In Chief: [mr.ashraf.salih@gmail.com](mailto:mr.ashraf.salih@gmail.com)

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نشر هذا المقال في دورية كان التاريخية International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير  
مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع  
للأغراض تجارية أو ربحية.

## مُقَدِّمَةٌ

أولاً: مدارج التحول من الديني إلى  
الديني

من نافل القول إن رغبة الهيبة في السلطة، والبحث عن مخرج لتحقيقها، يعتبر أحد أبرز العوامل، التي يمكن أن نستدل بها على التخطيط لتحقيق طموحه السياسي بالانتقال بالزاوية من الاشتغال الديني المحض إلى الاشتغال السياسي المحض. فما هي أهم سمات التخطيط في ذلك؟ بالرجوع إلى الاستقراء الكرونولوجي لتحول الزاوية المؤسسة الدينية إلى مؤسسة الدولة استناداً على الصحافة الفرنسية، يمكن تقسيمها إلى ثلاث مراحل مع تبيان معالم التخطيط والتصميم خلال كل مرحلة:

## ١/١-المرحلة الأولى (ماي /يونيو ١٩١٢):

تمكن خلالها من فرض نفوذه على سوس<sup>(٤)</sup> والسفح الجنوبي للأطلس الغربي، باستثناء تازروالت وماسة<sup>(٥)</sup> وحاحة<sup>(٦)</sup> المناطق الخاضعة للقايد أنفلوس، ونفس الشيء يمكن أن نقوله عن القبائل الخاضعة لنفوذ المتوكي، التي ظلت بمنأى عن حمى الزاوية المتطلعة للعب دور سياسي مركزي. وخلال هذه المرحلة بدأت الزاوية تنحو منحى جديداً بإضفاء طابع الدولة عليها، وإن كان الأمر لا يزال في مرحلته الجنينية، فقد بويغ سلطانا على تارودانت من طرف قايدها يوم الجمعة ٢٦ يونيو ١٩١٢<sup>(٧)</sup>.

٢/١-المرحلة الثانية (منتصف يوليو/ منتصف غشت  
١٩١٢):

اندفعت الزاوية في دفع التحافها بالسياسي نحو الشمال حتى مراكش، التي دخلها الهيبة دون حرب تذكر، ويرجح دانييل ريفي ذلك إلى المساومات البارعة<sup>(٨)</sup>، التي أجراها مع كبار القياد، في حين أرجعت الجرائد الفرنسية عجز القيادة على وقف تنامي الثورة وزحفها نحو الشمال على ضغط الجماهير الشعبية، التي أرغمت كل من الكندافي وعيسى بن عمر وأنفلوس على الوقوف مكتوفي الأيدي أمام موجة الحركة الجهادية الصاعدة، أما كبار الشخصيات الأرسقراطية والمخزنية والعسكرية فقد أجبرت على الانضمام للثورة<sup>(٩)</sup> الآخذة في التحول الكبير بدخول قائدها مراكش، وخلال هذه المرحلة فقدت الزاوية أهم خصائصها بتحولها إلى دولة.

## ٣/١-المرحلة الثالثة (١٥ غشت/ ٥ شتنبر ١٩١٢):

بلغت الزاوية ذروة نشاطها السياسي خلال هذه المرحلة، ففي أجواء الليالي الرمضانية المضمخة بالنفحات الروحية، وصل صاها إلى أبعد مدى، مبشرة بدولة دينية آخذة في التشكل على

تقدم تجربة الشيخ أحمد الهيبة ماء العينين "السلطان الأزرق"<sup>(١٠)</sup> نموذجاً لامتزاج الديني بالديني، فقد انتقل الشيخ بالزاوية الصوفية التي وجد نفسه على رأسها من العمل الديني الدعوي، أي من طور الدعاية والتأثير، إلى طور التنظيم والعمل السياسي المباشر، باستغلاله الشائعات والأخبار الرائجة عن أحداث فاس ١٩١١، لإعادة الهيبة لحركة والده المنطفئة، فأشاع خبر وفاة السلطان المولى عبد الحفيظ، ومنع إقامة صلاة الجمعة باسمه بالمسجد الأعظم بترنيت، وأعلن نفسه إمام الزمان، أي المهدي المنتظر، وقائد الجهاد. وبعد أسبوع من هذا دخل مسجد ترنيت متخذاً جميع شارات السلطنة الشريفة "المظل الإمبراطوري والعرش المرصع بالذهب"<sup>(١١)</sup>، ضافياً على نفسه في نفس الوقت نفحة دينية/ غيبية بادعائه المهديوية.

انطلقت حركة الهيبة في تحولها من الديني إلى الديني/ من زاوية إلى دولة، بعد أن استوفت الطور الأول، المميز بالدعاية والتبشير وحشد الأنصار والخلقاء، لتدخل طور العمل المباشر. تامت الحركة بشكل تصاعدي، وتضخمت بالأعداد الهائلة المنظمة إليها. وكانت في كل أطوارها مدينة لتكوينه الشخصي وتركيبته النفسية، فوسمها بميسمه الخاص، حيث تلامس تجاور الديني والديني، واكتنفاهما ببعضهما.

والملاحظ أن هذا المعطى الأخير، أي وجود شخصية دينية على رأسها، كان سبباً في فشل الحركة في الانتقال من الديني إلى الديني، ففي جميع الحركات التي اعتمدت الدين في إقامة دولتها إلا ووجد السياسي يستغل ويستتبع الديني له، دليلنا في ذلك صعود السعديين أو أشراف تكمدارت على أكتاف الطريقة الجزولية، والحركة التي لم تجد طريقة صوفية تعطيها تحقيق أغراضها، نجدها تلجأ إلى تبني إيديولوجيا الشرف "العلويون"، بزعم الانتماء لآل البيت، وتلك التي لم تستطع مخالطة أصلها البربري الصريح، فقد كانت تنهج سياسة التقرب من الشرفاء بمنحهم عددا من الامتيازات، وإحاطتهم بالتوقير والتشريف، كما فعل المرينيون. فلماذا نجح هؤلاء وفشل أولئك في بناء دولتهم؟ أيكمن داء عطبها في جمعها بين الديني والديني في وحدة صلبة عصية على الانفصال؟ وكون ذلك راجع لطبيعتها التكوينية<sup>(١٢)</sup>، وليس لأمر طارئ فرضته شروط تاريخية محددة؟ لهذا وجدت صعوبة في التخلص من الديني حين أصبح يشكل عبئاً على السياسي؟ هذه هي الأسئلة التي سنحاول الإجابة عنها في هذه الدراسة.

الصحراويين ليستقروا بسوس إلى الأبد. عبر الناجون من الموت، من أهل الصحراء وسوس، جبال الأطلس، بعد أن حظر عليهم الإقامة بمراكش<sup>(٩)</sup>. والملاحظ أن التعامل اللين للقايد عمر السكتاني، الذي لم يهتبل هزيمة سيدي بوعثمان لمطاردة فلول الزاوية تدعم وجهة النظر في كون النخبة المغربية لم يتجاوز دعمها للزاوية الراغبة في التحول لمؤسسة سياسية نطاق العواطف والمشاعر، فالقايد السكتاني لم يجهز على جندها في محنتهم مخليا سبيلهم.

هناك فاعل آخر غالبًا ما يتم التغاضي عنه، ويتمثل في هذا العنصر المتحمس درجة العصاب والهديان، من الأطفال والنساء والشيخو لاعتقادهم المنقطع النظر بقداسة الزاوية. وهو الفاعل الذي احترق بلهيب تحولها السياسي، لقد ذهبت معركة سيدي بوعثمان، التي وضعت حدا لتطلعات الزاوية، معلنة موتها وتحولها لمجرد حركة للجهاد حتى وفاته سنة ١٩١٩ بألفي شهيد. كانت مذبحه عظيمة، تمت تحت شمس الزوال اللاهبة، للحفاة العرارة، الذين لا يملكون من الوطن إلا حبه الذي يجري في عروقهم. ففي صبيحة ٥ شتنبر ١٩١٢، اشتبكت القوات الفرنسية المكونة من أربع مئة جندي بقيادة مانجان بقوات الهيئة بسيدي بوعثمان.

في هذه المعركة، كانت قوات الهيئة رغم توفرها على طابور وعدد قليل من المدافع واثني عشر ألف من المشاة والفرسان، إلا أنها لم تكن توجي بأنها قوات منظمة، لقد كانت عبارة عن موسم<sup>(١٠)</sup> نصفه من الأطفال والشيخو<sup>(١١)</sup>، أغلبهم من العزل غير المسلحين إلا بحبال لتقييد الرومي، ولم يكن سلاح الفرسان سوى استعراض فخم لألعاب الفروسية، تلاشت مع أولى طلقات المدفعية والرشاشات الفرنسية الثمانية، أما باقي قوات الهيئة فقد اندحرت وتراجعت تحت حماس واندفاع الخيالة من السنغاليين والكوم<sup>(١٢)</sup>. وبذلك يكون الرصيد البشري لهذه التجربة السياسية ذات الأسس الدينية في بناء دولتها، قد وقف عائقًا أمام تحقيق الانتقال والتحول من الديني إلى الديني.

### ثالثًا: التمزق بين الديني والديني/

#### العلماني ودوره في فشل التحول

من الملاحظات المسجلة حول الزاوية الدولة تمزقها بين العلماني والغيبي، وظل هذا الأخير شديد السطوة عليها، أسيرة له، معها لم تنفع محاولات الهيئة في الأخذ بالعلماني على المستوى السياسي، الذي لم يخل من ثورية، إذ سعى إلى تغيير الهيكل السياسي، بتخليه عن كل رموز العهد السابق، أحرق

هيئة مؤسسية مع استقرار الهيئة بمراكش. فرض الهيئة، خلال هذه المرحلة، نفسه كسلطان محرر في كل المناطق الساحلية إلى حدود مازاكان باستثناء المناطق الساحلية الخاضعة للقايد عيسى بن عمر<sup>(١٣)</sup>، وبتدالة تعبأت القبائل لتمهيد الطريق له نحو فاس، أما بنو مطير فقد اتفقوا مع موحى أوحمو الزياني لشن هجوم على مكناس، وبالشاوية الخاضعة للمخزن حمل أهلها السلاح<sup>(١٤)</sup>، يملأهم يقين راسخ بأن الوقت قد حان لمواجهة المحتل.

إن هذه المراحل الثلاث تبرز أن حركة الجهاد بقيادة أحمد الهيئة كانت تخضع منذ البداية لمنطق التصميم والتخطيط والتدرج، فأهدافها في الانتقال بالزاوية من مؤسسة دينية إلى مؤسسة سياسية "دولة"، كانت واضحة<sup>(١٥)</sup>، مستغلة في ذلك النسق الاجتماعي والسياسي الأشبه بالنظام الفيودالي الذي ساد الجنوب المغربي<sup>(١٦)</sup>.

### ثانيًا: الرصيد البشري أفاقه ومعيقاته في تحقيق التحول

باستنطاق مكونات العناصر الفاعلة في تحول الزاوية من الديني للديني، يتضح أنها مزيج من عدة مكونات، من حرفيين وطوائف دينية وروابط مهنية "أصحاب الدكاكين والحرفيين التقليديين"<sup>(١٧)</sup>، فالمكون الشعبي يظل حاضرا بقوة، فأخلص الناس إيمانًا بأهداف العمل السياسي للزاوية في تحولها لدولة بالجنوب من الفاعلين فيها، نجد المريرين، الذين تسميهم المصادر الفرنسية بالطلبة<sup>(١٨)</sup>، وبعض القياد كالكلولي<sup>(١٩)</sup> والتريعي<sup>(٢٠)</sup>، أما التجار فقد اكتفوا في أحسن الأحوال بموقف المنتظر المتردد.

فقد اتخذ كبار تجار فاس موقف المترقب، أما بمراكش حيث قام الهيئة بمصادرة منازلهم لإيواء جنده، فقد كتموا مشاعرهم في صدورهم إزاء الزاوية، والوحيدون الذين أبدوا موقفًا عدائيًا واضحًا، كانوا كبار تجار الدار البيضاء باقتراحهم قطع الطريق على محلة مريبه ربه، المعسكرة بالرحامنة، بواسطة غارة خاطفة لخيالة عبدة انطلاقًا من أسفي، تحت قيادة عيسى بن عمر، ويرجع دانييل ريفي موقفهم هذا إلى تخوفهم من وقوع مراكش تحت طائلة السلب والنهب تمامًا مثل ما حدث للدار البيضاء سنة ١٩٠٧<sup>(٢١)</sup>.

إن خذلان الزاوية المتطلعة للعب دور سياسي من طرف فاعليها المرفهين سوف يتعمق بشكل جلي بعد هزيمة سيدي بوعثمان، فقد تخلى عنها تقريبًا جميع كبار قادتها "أعضاء المخزن الذي أسسه الهيئة"، الذين فروا مع زمرة من

منحوتة من قاموس الإخاء والحب، وهي مصطلحات غريبة عن القاموس المخزني، قريبة من الأدبيات الصوفية، كما عامل دائرته الضيقة كأمر وليس كسلطان.

عانت الزاوية في زمنها العلماني وهي تتحول إلى دولة من عدم التحاق النخبة العسكرية والمثقفة "العالمية" بها بمراكش، ولا يمكن تفسير تلكتها إلا بلعبها على الجبلين، فقد كانت تكتفي بالمحابة والتعاطف، تحت ضغط الجماهير، وفي نفس الوقت لم تكن مستعدة للمجازفة بالورقة الفرنسية. هنا يطرح علينا سؤال لماذا لم يمارس مخزن الهيئة جاذبيته على النخبة الحضرية، واكتفى بالمنخرطين في سلك الجندية من ذوي الرتب الصغيرة، ومن أتباع الطريقة، وأبدى كبار التجار، إزاء الزاوية المتطلعة للتحويل إلى دولة، نفورهم أو كراهيتهم أو على الأقل انطوا على مشاعرهم المكبوتة<sup>(٢٧)</sup>. في رأينا أن عجز الزاوية عن التحول إلى دولة، واجتياز المرحلة الانتقالية بين الزاوية والدولة بنجاح وتحقيق أهدافها في الحرية والتحرر يرجع إلى عجزها عن التوفيق بين العلماني/ الإنساني والميتافيزيقي/ الغيبي، فالهيئة مثلا كان في تعاملاته لا يحتكم إلا إلى السيف/ السلاح الذي لم يتقن أبجدياته الحديثة، فخانها في معركة سيدي بوعثمان، ولم يعترف بأهمية التفاوض مع الخصم لأنه لم يكن سلطانا، ولأن التفاوض مع الجيوش الغازية يعد خيانة في أعين المريدين<sup>(٢٨)</sup> المتعلقين بمثاليات الدين وقداسته.

كانت المشاعر الدينية واضحة كل الوضوح عند الأتباع الحركيين المعول عليهم تحقيق التحول والانتقال من الديني المحض إلى السياسي المحض، لوجود شخصية دينية على رأسها، تحيط بها هالة من الوفاق لانتماؤه الشريف، وخضوع زاوية كبيرة لنفوذه الروحي<sup>(٢٩)</sup>، ولادعائه المهدوية. تنامت هذه المشاعر في تسام مطلق مع طبيعة الذهنية الخرافية السائدة يومئذ، ثم تعززت مع دخول المخزن في مفاوضات مع الجيش الغازي، الأمر الذي يعد خيانة من الناحية النفسية<sup>(٣٠)</sup>، فانعكس ذلك على طبيعة أنصاره، الذين لم يكونوا إلا من المساكين والمعدمين والفقراء، في الوقت الذي اتخذت النخبة العسكرية والمخزنية وكبار التجار موقف الممتعض والمرتقب، باستثناء جزء من النخبة العالمية<sup>(٣١)</sup>، وكانت هذه الذهنية الخرافية سبباً في الانهيار السريع لحركته عند أول صدام مع قوات الاحتلال الفرنسي، في معركة سيدي بوعثمان، التي على إثرها تلاشت الجموع وتبخرت، وكان أول المتحلين عنه "مخزنه". الأمر الذي جعل التمزق بين العلماني والديني يضع حدا لتجربة الهيئة السياسية، ويبقى السؤال: هل كان انهيار هذه التجربة نتيجة

النزالات، وألغى الضرائب غير الشرعية، ولم يعترف بالظواهر الموقعة على عهدي المولى عبد العزيز و المولى عبد الحفيظ، في حين كان أقل علمانية على مستوى التخطيط العسكري، فقد تشكلت غالبية قواته العسكرية من الفلاحين والمعدمين والمساكين، وحتى عسكريه فإن تكوينهم العسكري كان عتيقاً لم يخرج عن التكوين الذي تلقاه الجيش المغربي على عهد المولى الحسن الأول.

فالتعلق غير الواعي والمتذبذب بالعلماني للزاوية جعلها شديدة الهشاشة والعطب، تعمقت جراحها بتعلقها بالغيبي المطلق، وفي استنادها على كاريزما القادة المهتدة بالعطب، المعرضين لفقدان هويتهم ما أن يتم تحول الزاوية إلى دولة، ومن أسباب الضعف الكامنة في أعماق تحولها من زاوية إلى دولة قيامها على البركة، فقد كانت مطالبة باستمرار باجتراح المعجزات، مما جعلها موضع سخرية واستهزاء المستعمر<sup>(٣٢)</sup>، فالتعلق بالغيبي والمطلق لعب فعلاً دوراً كبيراً في منح التحول زحماً وتألقا في بداياته، لقد حرر أعماق الشعب المغربي المصدوم بالاجتياح الفرنسي، تعلق الأعلام بأسطورة السلطان المخلص، أسطورة تشبث بها الشعب المغربي كتعويض نفسي عن القهر والبؤس وسوء الحال المتعذر تجاوزه باتخاذ الأسباب المادية للتأخر التاريخي القاهر إزاء الخصم، لكن هذا التعلق الغيبي سرعان ما تحول إلى عبء ثقيل على الزاوية حينما همت بالتحول إلى دولة، وقد كان الهيئة على وعي بهذه الخطورة لذلك ظل ملتبسا في تعامله مع الأتباع، وتعاطم هذا العبء عند الهزائم والانكسارات، فتعرضت بركة الهيئة لهزات عميقة دفعت به إلى تجنب الناس، والانعزال بعيداً عن الأعين، تاركاً لأتباعه الحرية في تأول الأحداث ووضع التفسيرات<sup>(٣٣)</sup>.

إن انغراس الزاوية الدولة في الغيبي، وضعها على حافة الفشل، رغم أخذها بالأسباب المادية لإقناع الجاحدين والمتشككين، وأحياناً بشكل واع، وارتباطها بالديني في أكثر تجلياته وواقعيته المفرطة. فتحول الزاوية على عهد الهيئة من زاوية إلى دولة يبروقراطية بمراكش جعلها مهددة بالاندثار، وكان الرجل على وعي بخطورة هذه المرحلة الانتقالية. لقد كان حريصاً على الحفاظ على شهر العسل الوهمي للثنائي المستحيل: "الواقعي والمثالي"<sup>(٣٤)</sup>، يتبين ذلك في ترده في اتخاذ شارات المخزن/السلطان بشكل واضح لا لبس فيه، فقد توجه إلى العالم الخارجي كسلطان، وفي نفس الوقت حرص على التخلص تماماً من مصطلحات ومفردات القاموس المخزني في تعامله مع شيوخ القبائل<sup>(٣٥)</sup>. حرص على استخدام مصطلحات ومفاهيم

ثقافته الدينية على أن يكتسب إحدى صفات القائد السياسي في قدرته على الحشد واستمالة الأتباع والأُنصار في البداية، لكن مع دخول طور العمل المباشر والمواجهات الدموية، وجد صعوبة، تمامًا كرجال الكلمات، في التأقلم مع العمل الشاق، بل ومثلهم لا يصلح له<sup>(٣٩)</sup>، ومع فشل الشيخ، في فك الارتباط بين الديني والديني أو على الأقل التوفيق بينهما، ومخاتلة الشروط التاريخية الضاغطة، فشل في تحقيق طموحه السياسي، فانكفأ عائدًا نحو الجنوب، وظل منزويًا بأكرادوس إلى أن توفاه الأجل المحتوم بتاريخ: ٢٧ يونيو ١٨٧٧، معلنا في نفس الوقت موت التجربة السياسية المعتمدة على الإيديولوجيا الدينية في بناء الدولة المغربية، على شاكله تجارب القرون الوسطى، مع بروز وظغيان شروط وسياقات دولية جديدة/قوى خارجية، وتحكمها في المحلي.

### خاتمة

رغم المحاولات المتسمة بالفراة والجدة لهذه التجربة في التوفيق بين المبادئ الدينية والمنافع الدنيوية، ومعانقتها للعلماني في آخر محصلاته<sup>(٤٠)</sup>، إلا أنها فشلت في تحقيق التحول من الديني إلى الديني، وبالتالي بناء دولتها الخاصة بها، وإعادة تجربة المرابطين من جديد، واستعادة إرثهم العظيم<sup>(٤١)</sup>، الأمر الذي لم تكن الشروط الخارجية، المتمثلة في المد الاستعماري الكاسح، لتسمح به، المعطى الذي لم ينسب له هذه الدراسة، بل ما يهمنا نحن هنا هو تحليل وتفكيك التحول في حد ذاته، سواء أكتب لها الاستمرارية أو الاضمحلال، ونرى أن العائق في تحقيق التحول عند تفكيكها، يكمن في كونها ظلت صناعة كلاسيكية، وإن اعترتها بعض الفراة والجدة، لأنها ببساطة كانت ذات حمولة إيديولوجية جهادية مستندة على رؤية تقسم العالم إلى جزأين متضادين: دار الإسلام ودار الكفر. فهي لم تكن حركة مضادة للمخزن، سببة يتولد من رحمها محاولة لبروز سلالة جديدة، والملاحظ أنها على هذا المستوى لم تكن واضحة فيما يتعلق بهذا الجانب كل الوضوح، فقد اعترتها التردد والتقية، اعتمدت خطابين مختلفين، فقد خاطب الشيخ العالم الخارجي وتعامل معه كسلطان، وخاطب وتعامل مع أتباعه وأنصاره كشيخ، وظل حتى وهو يتبنى جميع شارات السلطنة، يروج، في نفس الوقت، بين أصحابه أنه مجرد خليفة لأحد أبناء تافيلالت المنحدر من صلب نفس السلالة العلوية الحاكمة<sup>(٤٢)</sup>، ويتبنيه لهذه الضبابية، وابتعاده عن الوضوح، جعل من نفسه عائقًا لتحقيق التحول، ثم تعمق الفشل والعطب بادعائه

لتحول مؤسسة دينية إلى مؤسسة سياسية؟ كما يذهب إلى ذلك دانييل ريفي<sup>(٣٩)</sup>، والحقيقة أنه يتحدث عن فشل المقاومة وليس بناء الدولة، التي هي موضوع بحثنا، أم السبب هو سيادة الذهنية الخرافية بين صفوف أنصاره، البعيدة كل البعد عن جوهر الإسلام في نقائه وتجرده؟

### رابعًا: من فشل التحول إلى النكوص

رزع المغاربة تحت وطأة مشاعر الإحساس بالقهر والعنت، فخلال صيف ١٩١٢، عانت أغلبية الشعب المغربي من انهيار نفسي عميق، واثابته حالة من حالات فقدان الهوية، وانهيار منظومة القيم، فأصبح الجميع أمام أزمة أخلاقية ووجودية بالدرجة الأولى. غمرت موجة اليأس حتى كبار الشخصيات، من النخبة المثقفة/العامة والتجارية، فرسالة أحد كبار الملوك<sup>(٣٣)</sup>، التي اعترضت مصلحة الاستعلامات الاستعمارية طريقها، قبل أن تصل مجلة الحق، تنضح بالمرارة، كانت صرخة موجعة عاجزة. ونفس الرؤى القيامية نجدها عند المختر السوسي<sup>(٣٤)</sup>، وفي أسفل المجتمع سيطرت حالة من القلق الجماعي، غذتها الثقافة الشعبية السائدة عن دنو ساعة الفناء، وتعمقت هذه المشاعر بالاختلالات التي كان يمور بها المجتمع المغربي.

حاول الهيئة استغلال هذا اليأس الذي سيطر على المغاربة بمنحهم أملا في قدرته على صناعة التحول، بضخ دماء جديدة في شرايين المجتمع عبر تجاوز مأزق سيطرة الغيبي على الدولة الخارجة من رحم مؤسسة دينية/الزاوية بإحداث انقلاب مجتمعي باستغلاله توقف دوران النخبة لكسب الساخطين إلى جانبها، كما أي حركة سياسية ثورية طامحة إلى تحقيق التغيير<sup>(٣٥)</sup>، فكان أولى الأعمال التي باشرها قيامه بعزل قياد المخزن وتعويضهم بأخرين من اختيار الجماعات، التي كان يؤسسها في كل منطقة أحضرها لنفوذها<sup>(٣٦)</sup>، إلا أن هذا لم يكن كافيا لتحقيق الانتقال المنشود، وكان عطبه وعجزه عن الارتقاء بالمؤسسة الدينية/الزاوية إلى الدولة، نتيجة لعدم قدرته على استمالة كبار العسكريين، مكتفيا بأصحاب الرتب الدنيا، وبمن تحت السلم الاجتماعي من الأطفال والشيوخ والنساء، ممن تعوزهم التجربة والخبرة، والشيخ نفسه كانت المرحلة تتجاوز قدراته الإنسانية، فلم يمتلك القدرات الذهنية للتجار أو الخبرة الدبلوماسية للسلطان في التفاوض، وهي مرتكزات لا غنى عنها لتحقيق الانتقال والتحول السياسي، أي الثورة بمفهوم برينتن كرين<sup>(٣٧)</sup>، وفوق هذا فقد كان رجل دين ولم يكن رجل سلاح<sup>(٣٨)</sup>، وجد نفسه مجبرًا على حمل الإرث الثقيل لعائلته بحكم الدم والانتساب البيولوجي، وقد ساعدته



صورة رقم (٣)

أحمد الهيبة وهو يعلن الجهاد ضد الاستعمار،  
رسم في الصحيفة الفرنسية  
لوبوتي جورنال في عددها ١١٣٧ بتاريخ ١ سبتمبر ١٩١٢



صورة رقم (٤)

زاوية الشيخ ماء العينين، والد أحمد الهيبة،  
بسمارة، بنيت سنة ١٨٩٨.

للمهدوية، واعدًا الأتباع بمنحهم القدرة على امتلاك أجساد فوق بشرية لا تتأثر بالرصاص وقذائف الكفار، جاعلاً منه عائقاً، في تحقيق التحول، بتوجيههم للتطلع نحو السماء، عوض الاعتماد على قدراتهم الخاصة.

**خلاصة القول** فإن تعالق الديني بالديني، والتباسهما، واكتناف الواحد بالآخر، والعجز عن اتخاذ الديني مجرد وسيلة لتبرير انزلاقات السياسي لتحقيق أغراضه الدنيوية، كان وراء الفشل في تحقيق التحول، المتجلي في بناء السلطة الزمنية.

## الملاحق



صورة رقم (١)

مبايعة المجاهد أحمد الهيبة سلطاناً على المغرب



صورة رقم (٢)

الشيخ أحمد الهيبة ماء العينين  
قائد حركة الجهاد بالجنوب المغربي

## الاحالات المرجعية:

- (٢٠) تشبيها لها بالمواسم السنوية التي تقام بمختلف مناطق المغرب بالقرب من أضرحة من يعتقد بصلاحتهم وولايتهم.  
(21) Rivet, Daniel, **Lyautey et l'institution**...op, cit, p, 143.  
(22) Ibidem.  
(23) **La Dépêche Marocaine**, Les Faits et gestes d Ahmad El Hiba, 8(ème) année – N°2304, Tanger, mercredi 24 juillet 1912, p,1.  
(2٤) للاطلاع على بعض التفسيرات التي أشاعها أنصار الهيئة لتبرير الهزائم، وقوبلت من طرف الشيخ بالصمت، يمكن الرجوع إلى دانييل ريفي:  
Rivet, Daniel, **Lyautey et l'institution**...op, cit, p, 140.  
(٢٥) برينتن، كرين، **تشریح الثورة**، ترجمة سمير الجليبي، الطبعة الأولى ٢٠٠٩، دار الفارابي، ص، ١١٦.  
(٢٦) Rivet, Daniel, **Lyautey et l'institution**...op, cit, p, 141  
(27) Ibid, p, 142.  
(٢٨) ما دمنا هنا نعتبر المرید ثورياً، مادام يطمح إلى تغيير الواقع الاجتماعي المتردي، فإنه هنا يتماثل مع الثوري المعتقد في قداسة الثورة ومثاليته، انظر في هذا: برينتن، كرين، **تشریح الثورة**... مرجع سابق، ص، ٨٠.  
(29) **La Dépêche Marocaine**, Dans le Sous, 8(ème) année – N° 2300, Tanger, samedi 20 juillet 1912, p, 1.  
(٣٠) برينتن، كرين، **تشریح الثورة**... مرجع سابق، ص، ٨٠.  
(٣١) نموذج المختار السوسي  
(32) Rivet, Daniel...op, cit, p, 141.  
(٣٣) Ibid, p, 138.  
(34) Ibidem.  
(٣٥) برينتن، كرين، **تشریح الثورة**... مرجع سابق، ص، ٩٩.  
(36) Rivet, Daniel...op, cit, p, 139.  
(٣٧) برينتن، كرين، **تشریح الثورة**... مرجع سابق، ص، ١٢٧.  
(38) **La Dépêche Marocaine**, Faut – il négocier avec El Hiba, 8(ème) année – N°2342, Tanger, samedi 31 aout 1912, p,2.  
(٣٩) برينتن، كرين، **تشریح الثورة**... مرجع سابق، ص، ١١١.  
(٤٠) كانت أكثر وضوحاً في أخذها بالعلماني على المستوى السياسي، إذ سعت إلى تغيير الهيكل السياسي، فقد تخلت الهيئة عن كل رموز العهد السابق، أحرق النزالات، وألغى الضرائب غير الشرعية، ولم يعترف بالظواهر الموقعة على عهدي المولى عبد العزيز و المولى عبد الحفيظ، انظر:  
**La Dépêche Marocaine**, La situation de Mouley Hiba, 8(ème) année – N°2320, Tanger, vendredi 9 aout 1912, p, 1.  
(41) Laroui, Abdallah, **Esquisses historique**, Centre Culturel Arabe, 1993, p, 99.  
(42) **La Dépêche Marocaine**, Gerlier, H, La Marche sur Marrakech, 8(ème) année – N°2339, Tanger, mercredi 28 aout 1912, p, 1.

- (1) هكذا كانت تسميه الصحافة الفرنسية، التي كانت تكتب في الخط الموازي للأحداث.  
(2) Rivet, Daniel, **Lyautey et l'institution du protectorat Français au Maroc 1912-1925**, Tome 1, Editions L' Harmattan, Paris, 1988, p, 136.  
(٣) هناك بعض التماثل بين تجربة الزاوية الدلائية وتجربة أحمد الهيئة، وإن كانت الأولى بلغت مبلغاً كبيراً من النضج، مقارنة مع الثانية، وسيطرة على مناطق واسعة، وربطت علاقات مع الخارج، ولكن في النهاية كان مصيرها الاندثار، بسبب عجزها على توحيد كامل التراب المغربي، وعدم قدرتها على الوقوف في وجه حركة انطلقت من المغرب الشرقي، ولم تكن تمتلك الرصيد الروحي والمادي للزاوية، ورغم ذلك وضعت حدا للمغامرة السياسية للزاوية. لمزيد من التوسع في موضوع الزاوية الدلائية، يمكن الرجوع إلى: حجي، محمد، **الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٨٨.  
(4) **La Dépêche Marocaine**, Dans le Sous, 8(ème) année – N°2300, Tanger, lundi 22 juillet 1912, p, 1.  
(5) **La Dépêche Marocaine**, Les Faits et gestes d Ahmad El Hiba, 8(ème) année – N°2304, Tanger mercredi 24 juillet 1912, p, 1  
(6) Rivet, Daniel, **Lyautey et l'institution**...op, cit, p, 136.  
(7) **La Dépêche Marocaine**, La Semaine Marocaine, 8(ème) année – N°2302, Tanger, lundi 22 juillet 1912, p, 1.  
(8) Rivet, Daniel, **Lyautey et l'institution**...op, cit, p137.  
(9) **La Dépêche Marocaine**, Dans le Sud, Les émissaires d Ahmad El Hiba sont repoussés, 8(ème) année – N°2318, Tanger, mercredi 7 aout 1912, p, 1.  
(10) **La Dépêche Marocaine**, La situation dans le sud, 8(ème) année – N°2322, Tanger, mercredi 11 aout 1912, p, 1.  
(11) Rivet, Daniel, **Lyautey et l'institution**...op, cit, p, 137.  
(12) **La Dépêche Marocaine**, Aux prises avec le sultan bleu, 8(ème) année – N°2337, Tanger, lundi 26 aout 1912, p, 1.  
(13) Montagne, Robert, **Les Berbères et le Makhzen dans le Sud du Maroc**, Essai sur la transformation politique des Berbères sédentaires « groupe chleuh » Librairie Félix alcan, Paris, 1930.  
(14) Rivet, Daniel, **Lyautey et l'institution**...op, cit, p, 131.  
(15) **La Dépêche Marocaine**, La situation de Moulay Hiba, 8(ème) année – N°2320, Tanger, vendredi 9 aout 1912, p, 1.  
(16) **La Dépêche Marocaine**, Dans le Sud, « par radio télégramme » de notre correspondant particulier, Mogador 14 juillet, 8(ème) année – N°2297, Tanger, mercredi 17 juillet 1912, p, 1.  
(17) **La Dépêche Marocaine**, Le caïd Trai, Protégé espagnole, 8(ème) année – N°2322, Tanger, dimanche 11 aout 1912, p, 2.  
(18) Rivet, Daniel, **Lyautey et l'institution**...op, cit, p, 142.  
(19) Ibidem.